دراسات
أدبية

مرجعيّة التوصيل في الخطاب القرآني

- مقاربة تداولية -

د. رزيق بوزغاية - جامعة تبسة

ملخّـــص:

يسعى هذا البحث لمدارسة جدوى إقامة تحليل تداولي للخطاب القرآني من خلال محاولة تأصيل الفكرة التداولية في مهادها الفلسفي واللساني من جهة، ومن خلال مراجعة مفاهيمها الإجرائية في ضوء الحقائق اللغوية في نصوص القرآن الكريم من جهة أخرى. ولعل أقرب ميدان لتلك المراجعة مقاربة مرجعية التوصيل في موضوع قيام الساعة، حيث تظهر الإحالات النصية في الزمان والمكان والذوات بوصفها آلية نصية ضرورية لفهم عملية تلقي النص وتفسيرها تفسيرا وافيا قدر المستطاع.

تمهيد: القرآن الكريم والتحليل التداوليّ

أول ما يشغل بال الباحث اللغوي في العالم العربي الإسلامي أن يسائل نفسه عن جدوى توظيف النظرية اللغوية الحديثة في دراسة القرآن الكريم. ولهذه المساءلة جانبان متصلان: فمن جهة هناك مخافة الإساءة إلى النص الكريم، وهذا الجانب الروحي، يستوجب التوجس خيفة من تلك الدراسات المستحدثة بما فيها من خلفيات فلسفية مضمرة.

ومن جهة أخرى لا يمكن إغفال ما في الأفكار العلمية الوافدة من قيمة معرفية، بحيث يعد التفريط فيها تفريطا في بعض الحكمة. ولكن بين هذا وذاك لا يجب إغفال مسألة على جانب من الأهمية، وهي أن توظيف الرؤى العلمية الجديدة في دراسة النصوص المقدسة يمكن أن يتخذ شكل مراجعة النظرية اللغوية الحديثة، لأن المقاربة إذا كانت علمية منهجية لا يكون مسعاها البتة إضفاء ملامح على موضوع الدراسة لم تكن له من قبل، بل على العكس من ذلك فروح الدراسة العلمية وصفُ حقائق الموضوعات كما هي، وقد كان هذا مقصد فرديناند دي سوسير رائد اللسانيات من قوله: «إن الموضوع الوحيد والفعلي للسانيات هو اللغة في ذاتها ولذاتها»[1]، فلا يكون الباحث متجردا للمعرفة بحق إلا إذا انتخب من وسائل الدراسة ما يكفل له بلوغ أسرار المادة المدروسة من دون ليّ لأعناق النصوص أو تجاوز لحدود الأدب، على هذا يمكن أن تكون كل المدونات اللغوية، ومنها القرآن الكريم، ميدانا لمراجعة النظريات القائمة وتمحيصها تمحيصا علميا موضوعيا قدر الإمكان، لأن النظرية من تلك لا يكتب لها العموم إلا بقدر استغراقها للنصوص واللغات على اختلافها.

---

[1] – Ferdinand De Saussure: Cours de linguistique générale. Publié par Charles Bally et Albert Sechehaye, PAYOT. PARIS. France, 1984, p 317.

من تلك الرؤى العلمية الوافدة تتخذ الفكرة التداولية في الراهن موقع الصدارة، وهذه الفكرة مشكلات رافقت ميلادها وتأسيسها في الغرب، كما رافقت تلقيها هنا في العالم العربي الإسلامي، ويمكن أن نلمس بعض تلك المشكلات في المهاد الفلسفي الذي نبتت فيه منذ الفيلسوف الألماني "إمانويل كانت" وإلى غاية الفيلسوف الأمريكي "شارل سندرس بيرس" صاحب السيمياء، كما يمكن أن نلمس بعضها في قراءة المفكرين العرب لتلك الفكرة كما يظهر مثلا عند زكي نجيب محمود في تأصيله الفلسفة الغربية. ولعل أهم عوامل الاضطراب الذي تعانيه التداولية اليوم في جهازها المعرفي أنها تراوحت بين الأصول المعرفية المثالية في أوربا وبين التجريبية البراغماتية في أمريكا، بحيث اتخذت من هذا الارتحال صبغتين أو أكثر، جعلت الدراسات التداولية في حاضرها تتشعب بين سياق وأفعال كلام وحجاج ومحادثة وغيرها. يقول سعيد علوش مترجم "المقاربة التداولية": «تظهر التداولية إذن كدرس جديد، أو كدروس جديدة، ما دمنا لا نستطيع الكلام على تداولية واحدة بل تداوليات متعددة، يوحدها العنصر الشكلي، لممارسة سلطة المعرفة والاعتقاد، في إطار استراتيجيات توجه النقاش والحوار، ما دام ارتباط الحقيقة قائما على حركة التواصل واستهداف المعنى فلا غرابة إذن أن نصادف العديد من التداوليات: تداولية البلاغيين الجدد تداولية السيكو سوسيو لوجيين تداولية اللسانيين. تداولية المناطقة والفلاسفة»[1] ولذلك كان السؤال المحير الذي يراود كل باحث في هذا المجال: ما هي نواة التداولية؟ وقد سعى غير واحد من الدارسين إلى معالجته مستنيرا بالتعريف الشائع للتداولية على أنها «دراسة اللغة في الاستعمال»[2]، أو دراسة اللغة في إطار التواصل، وهذا مما يجعل فكرة السياق فكرة محورية في المقاربات التداولية، إذ لا يمكن

---

[1]– فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية. ترجمة سعيد علوش. مركز الإنماء القومي، المغرب، د ط، د ت، ص5.

[2]– ذكر هذا التعريف غير واحد من اللغويين مثل روبير دي بوغراند، وانتقل إلى العالم العربي عبر الترجمة النقل.

دراسة اللغة دراسة وافية إلا من خلال تمظهرها في سياقات خاصة ووفقا لعناصر محددة فاعلة في العملية التواصلية أو التوصيلية.

2 . التداولية ومحورية التواصل

عرّف سوسير اللغة بوصفها نظاما من العلامات[1]، والنظام يقتضي وجهين: الأول أن تقوم اللغة على شبكة من العلاقات تركيبيةً وتجميعية، والثاني أن اللغة جملة قواعد وقوانين، وكلا الأمرين متكاملان لأن القانون ليس إلا تعبير عن علاقة. على هذا الأساس تُعرف لسانيات النظام أو لسانيات اللغة بأنها وصف اللغة في شكل قواعد كلية قادرة على تفسير الممارسات اللغوية المختلفة، بغض النظر عن العناصر غير اللغوية ذات الصلة بتلك الممارسات. وفي إطار هذا الاتجاه ظهرت المدارس البنيوية في جنيف وبراغ وكوبنهاق وحتى في أمريكا في صورة التوزيعية والمدرسة التوليدية التحويلية. نواة هذا التمثُّل شرحُ قيمة العنصر اللغوي في النظام، سواء أكان فونيما أم مونيما أم جملة أم نصا، إذ تظهر هذه القيمة عند وضعه بإزاء العناصر اللغوية الأخرى وما تربطه معها من علاقات.

وقد كان من الدوافع إلى هذا المسلك أنْ حدت بدي سوسير رغبةٌ في عزل اللغة عن بقية العناصر المحيطة بها، وهو مقصد دراسة اللغة في ذاتها فقط، ولذلك أبعد دون أن يلغي كل ما يخرج عن الماهية النفسية للسان من أبعاد عضوية ومادية كالكلام والأصوات والأشياء، مقتصرا على القواعد الكلية المشكلة للنظام والمعبرة عن العلاقات التركيبية والتجميعية في المستويات المختلفة. غير أن هذا التصوُّر واجه عددا من العقبات المعرفية فرضت على الدارسين تجاوز أسوار النظام لفهم الظاهرة اللغوية فهما أعمق، ذلك أن الممارسات اللغوية على اختلافها لا تقبل الخضوع المطلق للقواعد الكلية من جهة، كما أنها لا تستغني عن العوامل غير اللغوية في تشكُّلها، ومن هذه العوامل سياق التواصل وما فيه من عناصر فاعلة.

---

[1]- Ferdinand de Saussure : Cours de linguistique générale. p 33

تستند التداولية في مراجعة فكرة نظام اللغة إلى دراستين: الأولى نظرية وظائف اللغة لرومان جاكبسون[1]، والثانية فكرة التلفظ لإميل بنفنيست، وهما دراستان متكاملتان، إذ ركزت الأولى على ربط الرسالة أو النص بسياقها الخارجي مبرزة الوظيفة المرجعية للغة، واستثمرت الثانية هذه الفكرة في دراسة البعد المرجعيّ للملفوظات ودوره في تشكيل اللغة وتأويلها، وبالتالي في وصفها وصفا شاملا. قدّمت هاتان الدراستان بعدا جديدا أضيف لبعد النظام وهو ما شكل رؤية جديدة للسانيات، تعتمد على النظام في توصيف اللغة توصيفا متكاملا مع المرجعية أو مع علاقة اللغة بالعالم، وهذا مما تقتضيه دراسة اللغة كما هي في مظهرها الطبيعي وهو التواصل، وهو مبتغى التداولية في تعريفاتها العامة، إذ سبق تعريفها بأنها "دراسة اللغة في الاستعمال". هذا التعريف على إجماله يسعى لشرح دور المرجعية الفاعل في دراسة اللغة، إذ لا يمكن أن نبرر تشكل الملفوظات أو المنطوقات ولا أن نفسر قبولها وفهمها في المجتمع اللغوي إلا بإضافة هذا البعد المرجعي إلى اللسانيات. يظهر من هذا أن التداولية لا تلغي ما ثبتت صحته معرفيا في النظريات اللسانية السابقة عليها بل تثمنها وتؤكدها، إلا أنها تسعى إلى جعل الوصف اللغوي أكثر شمولا واستغراقا للممارسات اللغوية المختلفة.

تؤدّي المرجعيّة اللسانية دورا محوريا في دراسة اللغة من وجهين: الأول أنّ تفسيرَ وجود العلامات ومدلوليتها لا يكون إلا بالعودة إلى تجربة اكتساب اللغة، وهي تجربة مرتبطة بالمرجع وعلاقة المتكلّم به، لأن الأصل في التسمية أنها تعوّض الأشياء، والأشياء هي مراجع الكلمات والوجهُ الثاني لاستفادة الدرس الدلالي من المرجعية هو جملة مقترحات اللسانيات الملفوظية التي تسعى، كما سبقت الإشارة أيضا، إلى دراسة الاستعمال اللغوي في ضوء مقام التلفظ، وذلك ببيان دور العناصر الحاضرة في المقام في عملية تأويل الملفوظات المتواصَل بها، لأنّ ممارستنا للملفوظات

[1]– R. Jakobson: The framework of language. Library of Congress, p 81.

محكومة غالبا بفضاء نتلفّظ فيه، ونلجأ إلى مكوّناته كالزمان والمكان والأشخاص الحاضرين وحتى الأشياء لكي نعبّر عن جملة أفكارنا، ولذلك نجعل في نصوص الملفوظات قرائن مبهمة لا تُفْهم إلا بإعادتها إلى مراجعها الحاضرة في مقام التلفظ.

مفهوم المرجعيّة: يستند هذا المصطلح إلى مفهوم المرجع، ولهذا الأخير دلالات متقاربة في اللسانيات الحديثة وفيما يأتي أهمُّ التعريفات:

إزفيتان تودوروف: «إن السمة المكوّنة للعلامة هي ضرورة المصادرة على هذين العلاقتين معا وبتأنٍّ: إحداهما هي العلاقة مع الشيء، والأخرى مع المستمع (المتلقي)، فالعلامات من ناحية تشير إلى شيء غير العلامات نفسِها أي إلى شيء يمكن أن يُدعى مَرجعا أو موضوعا للعلامة، وليس من الضروري تصوُّر المرجع كموضوع مادي: الدولة، والحق، والأمساخ والأشباح كلها مراجع رغم أن أحدا لم يرها»[1] فالمرجع يتميَّز بكيان يختلف عن طبيعة العلامة اللغوية الدالة عليه، فهو الشيء المسمَّى الذي تحيل عليه تلك العلامة. ولا يُشترط في المرجع أن يكون ماديًّا بل يُشترط فيه أن يكون مستقِلا عن اللفظ من جهة وعن المعنى من جهة أخرى بوصفهما طرفا الماهية اللسانية، وعلى هذا الأساس يرى تودوروف أن كلمات الدولة والحق والأشباح لها مراجع لغوية لأن لها وجودا مستقلا عن المعنى والتصوُّر.

جورج مونان: «(في علم الدلالة) الشّيء أو المحسوس من العالم الملحوظ الذي يحيل إليه شكل لساني ما، من خلال علاقة المرجعية. من أجل التَّمييز بين الدال والمدلول والمرجع في التمثيل نستعمل طرق كتابة مختلفة: هكذا فإن كلمة **(oiseau)** تُمثَّل بـ: **[wazo]**، و«**oiseau**»، «**OISEAU**»[2]. هكذا يمثِّل المرجع حقيقةً غير

---

[1]– تودوروف: العلامة والرمز، (ضمن مجموعة اللغة). ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة: 2005، ص 31.

[2]– **Georges Mounin**: **Dictionnaire de la linguistique**. **PUF**, **Paris**, **France**, 4° **édition**: 2004, p 285.

لغوية، أي أنه من طبيعة مختلفة عن الشكل اللغوي الذي يحيل عليه، وما يربطه باللغة هو وظيفة الإحالة التي تضطلع بها الكلمات ومن شروط تحقق المرجع أن الشيء لا يكون مرجعا إلا إذا كان ملحوظا وهذا الشرط يتضمَّن أمرين: أحدهما أن الشيء له وجود حقيقيٌّ واقعي، والثاني أن هذا الوجود خاضعٌ لتجربة الإنسان.

هذه بعض التعريفات الأساسية لمصطلح المرجع، تناقلتها كتبُ اللغة بشكل واسع، فقد جاء في المعجم الموسوعي للغة الفرنسية في شروح المصطلحات اللسانية التي أعدَّتها لجنةٌ من الدارسين أن المرجع «كائن أو شيء، واقعي أو متخيّل، تحيل عليه العلامة اللسانية»[1] وهو يشتمل على فكرتين: أولاهما أنَّ المعنى الأساسي أو الكامن للمرجع هو الشيء المسمى، وهو كائن غير لغوي ينتمي في الأصل إلى العالم المحسوس، يربطه بالعلامة أو اللغة إجراءُ الإحالة، لأننا عندما نتواصل من خلال أنظمة العلامات غالبا ما نحيل القارئ على الوقائع غير اللغوية وهكذا تتجمَّع في العلامة ثلاثة عناصر هي: الدال (أو اللفظ)، والمدلول (وهو المعنى)، والمرجع (وهو الشيء المسمى) والفكرة الثانية المستلهَمة من التعريف أنَّ المرجع قد يكون مقيَّدا بعملية التلفظ، وفي هذه الحال يأخذ المصطلح اتجاها مغايرا لما سبق، إذْ يضطلع بدور المؤوِّل الذي يعود إليه كل إبهام في النصّ، تماما كحال مرجع الضمير في النحو، ولهذا يأتي مقيَّدا إلى عناصر محدودة في الملفوظ، والتي تُسمَّى مبهمات يتمُّ تأويلها إما بالعودة إلى سياق التلفظ وهو سياق خاص، أو إلى المعرفة المشتركة بين المتواصلين وهو ما اتُّفق على تسميته سياقا عاما، وهذا الميدان من محاور اهتمام اللسانيات التلفظية لأنها تسعى إلى دراسة عناصر المعنى في التواصل الطبيعي.

---

[1]– **Patrice Maubourguet et autres: Le petit Larousse (dictionnaire encyclopédique)**, Paris, 1995, p 867.

وخلاصةُ القول أنّ المرجع في الأصل هو الكائن المسمَّى بوساطة العلامة، ودلالة العلامة عليه في هذه الحال هي دلالة تعيين لأنها تُؤخذ من المعجم لا من معطيات خاصة في النص أو الملفوظ، والمرجع في التحليل التداولي هو كل ما يؤوِّل مبهما في النصّ، ولهذا قد يكون عنصرا في النص كما قد يكون عنصرا من خارج النص. والمرجع في هذه الحالة معيّن بدقة في فضاء التلفُّظ.

ويكتسب مفهوم المرجعية دلالته الرئيسة من دلالة المرجع كما تقدم، وفي الاستعمال العام لمصطلحيْ "**référence**" في الفرنسية و"**reference**" في الإنجليزية لا يكاد الدارسون يميِّزون بين وظيفة الإحالة وبين خاصية المرجعية، غير أنّ ريفاتير ومن نقل عنه يلجؤون إلى مصطلح جديد دالٍّ على الخاصية والميزة، أو على العلاقة بين اللفظ والمرجع هو "**référencialité**" و"**referentiality**" في اللغتين الفرنسية والإنجليزية على التوالي. وتعرِّف تيفان ساموايو هذا الأخير، من خلال دراسة ريفاتير لسيمياء الشعر، على أنه: «العلاقة بين الأدب والواقع»[1].

تعريف مقتضَب لا مناص من التأمُّل فيه من خلال سياق البحث الذي أُخذ منه وهو السيمياء الشعرية، لأن دراسة العلاقة بين الأدب والواقع تؤول إلى دراسة العلاقة بين الأنظمة السيميائية، كاللغة والعالم. وقد كان هذه المفهوم أداةً لريفاتير ليمهِّد لمفهوم المدلولية، فالمرجعية عنده تعني أن يعبّر الأدب عن الواقع كما هو من غير تمويه ولا انزياح، ولكنه يرى أن المرجعية تصبح وهما في النص الشعري، لأنه لا يمكن إدراك مستوى المدلولية فيه إلا بتجاوز مرحلة المحاكاة، وهي مرحلة مرجعيَّة أساسا. وفيما يلي أهم تعريفات المرجعية ترى في مصطلح "**référence**" دلالة على خاصية أو علاقة لا على وظيفة:

---

[1]– Tiphaine Samoyault : L'intertextualité. Mémoire de la littérature. Armand Colin, Paris, France, 2005, P 77.

جون ليونز: «مصطلح مرجعيَّة كما رأينا ينطبق على العلاقة الموجودة بين الكلمات والأشياء، والأحداث، والأفعال، والنوعيات التي تمثلها الكلمات وقد ذكرنا أنه يمكن في بعض المواقف الإجابة عن السؤال (ما معنى الكلمة س؟) من خلال تعريف ظاهري، أي من خلال الإشارة باليد أو بغيرها إلى المرجع أو مراجع الكلمة موضوع السُّؤال»[1].

جورج مونان: «إن اللغة بوصفها مجموعة أشكال منظَّمة تكتسبُ غايةَ وجودها من كونها تتعلق بخبرة المتكلمين في العالم. وفي معناها العام تمثل المرجعية علاقة موجهة من العلامة إلى الواقع. وتحديدا نوظف كلمة (مرجعية) للدلالة على علاقة تجمع شكلا من الخطاب مع شيء أو تمظهر خاص لتجربة المتكلمين. يمكننا أن نقابلها إذن مع مفهوم الماصدق»[2].

جان ديبوا: «المرجعية خاصيَّةٌ في العلامة اللسانية تسمح لها بالإحالة على شيء في العالم غير اللغوي، أو الواقعي أو المتخيَّل. الوظيفة المرجعية ضرورية للسان. وليس من الصواب أن ينحصرَ وصفُ الفعل التواصلي في هذه الوظيفة وحدها، لقد حدَّد رومان جاكبسون أقطاب الحدث التواصلي: إذا كانت الوظيفة المرجعية حاضرة فهي ليست وحيدة. في الوقت الذي تضمن فيه كلُّ علامة لسانية رابطا بين المفهوم والصورة السمعية (التعريف السوسيري للعلامة) فإنها تحيلُ إلى الحقيقة غير اللغوية. هذه الوظيفة المرجعية لا تربط العلامة بعالم الأشياء الواقعية مباشرة بل بالعالم المدرك في إطار التشكيلات الإيديولوجية لثقافة ما»[3].

---

[1]– **John Lyons : Linguistique générale. introduction à la linguistique théorique. Traduction de Françoise Dubois Charlier et David Robinson. Librairie Larousse, Paris, France, 1970. p 326.**

[2]– **Georges Mounin : Dictionnaire de la linguistique. p 284.**

[3]– Jean Dubois et autres : dictionnaire de linguistique et des sciences du langage Larousse, Bordas/ HER, Paris, France, 1999, p 404.

واضحٌ الاتفاقُ بين جون ليونز وجورج مونان حول مفهوم المرجعية، فهي، سواء كانت علاقة أو خاصية، ترتبط بالمفهوم الأصليّ للمرجع من حيث هو الشيء المسمى، وبالتالي فهي تعبيرٌ عن الإحالة الكامنة التي تحدِّد معاني الكلمات من خلال ما تشير إليه ضمن الخبرة الإنسانية. أما جان ديبوا فيقصد المفهومَ الفعلي الخاص بتحليل الخطاب، إنه يقصد تلك العناصر الإشارية ضمن الملفوظات والتي تتحدَّث عن كيانات محددة ومعرفة سواء كانت واقعية أو خيالية ويزيد على ذلك أن المرجعية متعلقة بالخبرة لا بشيء موضوعي من العالم غير اللغوي، فالخبرة الإنسانية مع الأشياء هي في الحقيقة مرجعية لغته التي يوظِّفها في التواصل، وباختلاف الخبرات تختلف المرجعيات وطرق تصنيفها في اللغات.

الخطاب والنص: أورد الدارسون تعريفات مختلفة للخطاب أسبغت على المصطلح حالة من اللبس، حيث يذكر معجم جان ديبوا مثلا أربع تعريفات للخطاب يعترف بعد عرضها بأنها تتصادم مع مفاهيم مصطلحات لسانية سابقة حيث يقول:

1. الخطاب هو اللسان الفعلي أو اللغة مطبقة من طرف المتكلم (الكلام). 2. وحدة تعادل الجملة أو تتجاوزها، تتألف من سلسلة تشكل رسالة لها بداية ونهاية (الملفوظ). 3. في البلاغة الخطاب هو سلسلة تطورات شفوية منظمة وفق قواعد دقيقة يقصد بها الإقناع أو التأثير. 4. في اللسانيات المعاصرة مصطلح خطاب يعني كل ملفوظ يتجاوز الجملة يقوم على قواعد الربط بين سلاسل الجمل[1]. هذه جملة التعريفات التي ذكرها والتي تختزل معاني المصطلح في سياقات معرفية مختلفة، وهي كما أسلفنا تكرر مفاهيم سابقة لا تحيد عنها حتى أن آخر التعريفات لا يخرج عن دائرة الملفوظ أو النص المنطوق.

---

(1)- Jean Dubois et autres: Dictionnaire de Linguistique et des sciences du langage Larousse , Bordas 1999, p 150.

قد نجد أطرافًا من إجابةٍ في تعريفات أخرى مثل التعريف المذكور في الموسوعة الفرنسية: «الخطاب مجموعة المظاهر اللفظية أو الشفوية أو المكتوبة بوصفها دالة على إيديولوجيا، أو حالة عقليات في عصر في مجال معين»[1] مع شيء من التحليل يمكن لهذا التعريف أن يمنح للمصطلح حياة جديدة مستقلة عن الكلام واللغة والملفوظ والنص، وهو قريب من التعريف ارتضاه تمام حسان بعد ترجمته لروبير دي بوغراند حيث يقول: «الخطاب مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق. وإذا كان عالم النص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد الاختزان في الذاكرة من خلال استعمال النص فإن عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما»[2].

يتفق تعريف تمام حسان للخطاب مع تعريف الموسوعة الفرنسية في مبدأ أن كل خطاب يتمحور حول ثنائية (سمات شكلية/ رؤية العالم) وهو مفهوم يتصف بتجريد أكبر من ذلك الذي يسم النص والملفوظ، يمكنه أن يغطي مجال البحث الدلالي الذي يسمى "تحليل الخطاب" فالسمات الدلالية تحيل على جملة من الخصائص العامة لأسلوب التعبير سواء أتم الأمر بالكلام أم بالرسم أم بالإخراج. فالكلام على سمات عامة يخرج الخطاب من دائرة النسق المغلق كالجملة والنص من حيث هي ظواهر تواصلية محدودة لها بداية ونهاية متماسكة تداوليا مع سياق خارجي خاص، ويجعله أكثر شمولية وقدرة على التجسد في أشكال نصية مختلفة.

ورؤية العالم شرط آخر يتكامل مع السمات الشكلية التي تؤدي وظيفة الدلالة. ورؤية العالم هي دلالة كبرى للخطاب قد تظهر في نص واحد، وقد لا

---

[1]- Dictionnaire encyclopédique : Le Petit Larousse illustré. 1996, p 345.

[2]- مقدمة كتاب (النص والخطاب والإجراء) لروبرت دي بوغراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الأولى: 1998، ص 6.

تكفي جملة نصوص للتدليل عليها وعلى هذا فقد يعجز النص الواحد عن تمثيل خطاب لأنه قد لا يكشف عن جملة الخصائص الأسلوبية لمؤلف، أو لمتلق مستهدف، كما قد يعجز النص الواحد عن بلورة رؤية للعالم. من أجل ذلك عدّ تمام حسان تضافر جملة من النصوص شرطا لظهور الخطاب. وهو تعريف كما نرى يميّز المصطلح عن بقية المصطلحات الملتصقة به في تعريف ديبوا وغيره من جهة، ويمنح لنا من جهة أخرى حق الكلام على خطاب قرآني يظهر في الآيات والسور متفرقة ومجتمعة.

المخاطَب والمرسَل إليه والمتلقّي في القرآن الكريم: لما كانت التداولية تنظر إلى اللغة كظاهرة متعالقة مع سياق تواصل أو ظروف توصيل، كان تحليلها لتلك اللغة يستند إلى فهم العلاقة بينها وبين مستعمليها، والمستعمل الخاضع للملاحظة في مثال القرآن الكريم هو المتلقي، لأن مفهوم التوصيل متمركز على عنصر الذات القارئة وما يؤثر في تلقيها للنصوص من عوامل ولتحليل تلك العلاقة في الخطاب القرآني لا مناص من تحديد بعض المفاهيم المتداخلة في هذا الميدان.

فإذا كان المخاطِب في القرآن الكريم، وهو الله تعالى، هو ذاته المرسِل، فإن شخص المخاطَب قد يختلف أحيانا عن المرسَل إليه أو المتلقي؛ ذلك أن المخاطَب تدل عليه قرينة النصّ، كما يظهر مع شخص الرسول الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: 108) إذْ دلّت عليه قرائن النصّ وهي الضمير المستتر في فعل الأمر، وكما يظهر أيضا مع خصوص جماعةٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (الحجر: 24) فدلّت على المخاطَب كاف الخطاب.

أما المرسَل إليه فهو كلُّ مقصود بالخطاب سواء دلّت عليه القرائنُ النصية صراحة أو لم تدلَّ، وهذا بحسب المخطط الأول لعملية التواصل عند رومان جاكبسون[1]، كما في سورة التكاثر: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2)﴾، حيث لم تكشف قرائنُ النصِّ خصوصَ الخطاب. ولا يُشترط في المرسَل إليه أن يطَّلع على الخطاب لأن تعيينَه متعلِّق بقصد المرسِل لا غير، وإنما تدلُّ عليه قرائن المقام أو الموقف، ففي النص المتقدِّم: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ تضاف إلى ضمائر الخطاب قرينةُ الموقف وهي عِلْمُنا بنزول هذه الآية على النبي محمد صلى الله عليه وسلم تعيينًا، وكذلك في النص الثاني: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ تُضاف قرائن الحال أو الموقف ممثَّلة في سبب النزول بحسب ما نقل علماء الكتاب، فيُعلم شخصُ المقصود بالخطاب وهو المرسَل إليه.

وأما المتلقِّي فلا تحدُّه معطيات الموقف أو أسباب النّزول، إذْ هو كلُّ قارئ اطَّلع على الخطاب سواء أكان مقصودا به أم غير مقصود، فإذا افترضنا في موقف ما قارئا لم يطلع على سبب النزول في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ فإنه يفهم من النص خطابا لعموم الخلق، ويقوّي ذلك نزولُ القرآن رسالةً لكل الناس على اختلاف الزمان والمكان. ولما كان القرآن في مجمله نصًّا مسجَّلا بالكتابة زاد احتمالُ مفارقة التلقي لمفهوم الخطاب لفظا وموضوعا. والمقصود باللفظ قرينةُ الخطاب المذكورة في النص حيث يمكن أن يفهم خطاب شخص الرسول خطابا لكلِّ مسلم، والمقصود بالموضوع محتوى الخطاب فقد لا يخصُّ شخصَ المخاطَب الذي تحيل عليه قرينةُ المقام، وإنما يعمُّ بفائدته كلَّ المتلقين، وعلى هذا الأساس فَهِم ابن عاشور من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ

[1]- R. Jakobson: The framework of language. Library of Congress, p 81.

مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (الحج: 05) أنّه خطابٌ لعامة الناس باعتبار أنّ أي متلقٍّ للنص يشمله محتوى هذا الخطاب.

إن التّمييز بين المفاهيم الثلاثة سبيلٌ إلى المقاربة المرجعيّة لنصوص قيام السّاعة خصوصا ونصوص القرآن عامّة، ووجهُ التّمييز أنّ المخاطِب مفهومٌ بنيويّ تدلُّ عليه قرائن النص، والمرسَل إليه مفهوم تداوليٌّ تدلُّ عليه قرائنُ الحال أو الموقف أو السّبب، وأما المتلقّي فمفهومٌ تفاعليٌّ استلهمته نظرية القراءة كما يظهر من أبحاث ميشال ريفاتير حول سيمياء الشعر ومدلولية القصيدة[1].

المرسِل هو المرجعيّة الأولى للخطاب: المرسِل لمجمَل الخطاب القرآني ذاتٌ واحدة هي ذات الله تعالى، ويدلُّ عليها نوعان من القرائن: أولاها القرائن اللفظية الصريحة في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)﴾ فقوله تعالى "أرسلناك نص صريح على كونه تعالى هو المرسِل. "وكذلك تتخذ القرائن الكليّة صيغا أخرى مثل مشتقّات الأصل (ن/ ز/ ل) كما ورد في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (الآية: 07) وفي سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الآية: 136). وتعدُّ هذه القرائن كليّة لكونها لا تكتفي ببيان ذات المرسِل أو المخاطِب في نصّ أو عدد من نصوص القرآن؛ ولكن دلالتها شاملة لكلِّ ما يعرف بالخطاب القرآني لأنها تتضمن التصريح بحقيقة الرسالة (أَرْسَلْنَاكَ، أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ...)، ولذلك عُدّ دورها محوريا في بيان مرجعية الخطاب الكبرى وهي علم الله، فمادام الخطاب منسوبا إليه كان علمُه مرجعًا لكل معرفة يتم توصيلها من خلال النصوص المتفرّقة، وهذا مضمون قوله

[1]- PP 1 / 22. Michael Riffaterre : Semiotics of poetry. Indiana university press , Bloomington 1978.

تعالى في سورة النساء: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)﴾. قال ابن عاشور مبيّنا نسبة مرجعية القرآن إلى علم الله هنا: «معنى "أنزله بعلمه" أي متلبّساً بعلمه، أي بالغاً الغاية في باب الكتب السماوية، شأن ما يكون بعلم من الله تعالى، ومعنى ذلك أنّه معجز لفظاً ومعنى، فكما أعجز البلغاءَ من أهل اللّسان أعجز العلماءَ من أهل الحقائق العالية»[1].

وثاني القرائن هي علاماتُ الخطاب المباشر المحيلةُ إلى المتكلِّم من خلال الضّمائر كما في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾، إذْ تحيل قرائن الإضمار في كلمات لَنَحْنُ، نُحْيِي، عَلِمْنَا...الخ على ذات المتكلِّم وهي الذات الإلهية.

غير أنَّ هناك استثناءً لهذه القاعدة تفرضهُ قرائن النص اللفظية، وهو نصُّ فاتحة الكتاب المذكور فيها يومُ القيامة ذكرا غير مقصود لذاته وإنما سياقًا لغيره. فالمخاطِب هنا غيرُ المرسِل لكون المرسِل مفهوما تداوليا بينما يعدُّ المخاطِب مفهوما نصيًّا. قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)﴾، وقد درس ابن عاشور وجهيْ الإرسال والخطاب في السورة الكريمة فقال: «لما أراد الله أن تكون هذه السورة أُولى سور الكتاب المجيد بتوقيف النبيء صلى الله عليه وسلم كما تقدم آنفاً نبه الله تعالى قُراء كتابه وفاتحي مصحفه إلى أصول هذه التزكية النفسية بما لقنهم أن يبتدئوا بالمناجاة التي تضمنتها سورة الفاتحة من قوله: (إياك نعبد) إلى آخر

[1]- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس. 1984، م 6 ص 45.

السورة»[1] فالمخاطِب نصًّا هم قُرّاء الكتاب أنفسهم، مع بقاء المرسِل للنص ذاتُ الله العليا، وذكر ابن عاشور في مدلوليتها على قيام الساعة أنَّ «يوم الدين يوم القيامة، ومبدأ الدار الآخرة»[2]، فبيّن أن القارئ يخاطِب الله تعالى بما يليق بجلاله مضمِّنًا ذلك دلالةَ نهاية العالم وقيامِ الساعة. ويظهر هنا كيف يكون المرسِل في حدّ ذاته مخاطَبا ويكون المرسَل إليه مخاطِبا، فاعتبارُ مرجعيَّة النص تحوّل مفاهيم التوصيل الأساسية.

مقام التوصيل: يضمُّ الموقفُ، بالإضافة إلى شخص المخاطَب أو المتلقي، ظروفَ توصيل مؤثِّرةً في تشكُّل النص وتأويله، قد تدلُّ عليها قرائن نصية وقد لا تُعرف مرجعيتها إلا بمعرفة ظروف التواصل أو التوصيل: «البحثُ عن الزمان والمكان هو الكشف عن الظروف التي تتجلّى فيها مرجعيَّتها انطلاقا من خطاب المتكلِّم شفويا كان أم كتابيا، بناء على ذلك فالحديث عن علاقة المتكلِّم المرجعيَّة بالسياق الذي يدور فيه الحديث هو تحديدُ الزمان والمكان، وكشفهما مرتبط بشروط خاصَّة بالمتكلم وبإحداثيتي الزمكان اللتين يصدرُ عنهما الخطاب»[3] وتتوزَّع معطياتِ السياق غير اللغوي ثلاثةُ عوامل تحدِّد مرجعية المكوِّنات اللغوية في النص وهي مرجع المتواصلين، ومرجع الزمان، ومرجع المكان. وإذا كان التحليل السابق قد تركز حول المعطى الأول، فإن القادم منه يتركز حول مرجعية الزمان في خطاب القرآن الكريم في موضوع قيام الساعة، لما له من دور محور فاعل في توصيل المعنى وإفهام القارئ، وبالتالي في تفسير ظاهرة التوصيل انطلاقا من العناصر التداولية الفاعلة.

---

[1]- المرجع نفسه م 1 ص 152.

[2]- المرجع نفسه م 1 ص 176.

[3]- ذهبية حمو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب. منشورات مخبر تحليل الخطاب جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص 105.

تَقييدُ زمن الحدث إلى زمن التلقّي: يمثل الزّمان أظهرَ قرينة سياقية في نصوص قيام الساعة، وعليه مدارُ كثير من موضوعاتها. فأهمُّ دلالة في إدراك القارئ لحدث نهاية العالم سرعةُ انقضاء الحياة الدنيا وفنائها، كما ذكر الزمخشري: «السّاعة من الأسماء الغالبة، كالنجم للثّريا وسميت القيامة بالساعة، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من السّاعات عند الخلق»[1] وقد يجري تقييدُ ذكر حدث النهاية إلى مقام النزول أو التوصيل لأنّ الغرض بيانُ قُرب هذا الحدث من حاضر حياة الإنسان.

وقد خلُص علماء القرآن إلى هذه المعاني والدلالات، والتي تُعدُّ في لسانيات التداول أبعادا مرجعيَّةً للخطاب، كما يظهر في دراسة التمثيل لنهاية العالم في سور يونس والكهف والحديد، ثلاثةُ نصوص توسَّلت بالتمثيل لبيان حقيقة الزمن في الحياة الدنيا، وعبِّرت بطريقة ضمنية عن الزمن المتبقّي من وقت قراءة النص إلى نهاية العالم. قال ابن كثير على قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45)﴾ قال: «"وَاضْرِبْ" يا محمد للناس "مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" في زوالها وفنائها وانقضائها "كَمَاءٍ أَنزلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ" أي ما فيها من الحَبّ، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله "فَأَصْبَحَ هَشِيمًا" يابسا "تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ" أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال»[2].

---

[1]– محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. مكتبة مصر، الفجالة، مصر، 2000م، ج 2 ص 224.

[2]– إسماعيل بن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم. دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 2000 م، ص 1156.

والنُّصوص التي تتوسَّل بهذه الصورة كلُّها وردت على سبيل الخطاب المباشر كما في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)﴾ وفي سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)﴾.

والملحوظ على قرائن الزمان التي تقيِّد الحقيقة المخبَر عنها إلى زمن التوصيل في هذه النصوص أنَّها هي ذاتها قرائن الخطاب، وتُستفاد هذه الإحالة الزمنية عادة من بنية الفعل لأنه في أصل مفهومه يربط الحدثَ بزمان ما، على أن الوصف هنا يقتصر على الدلالة الزمنية في الفعل لأنها كفيلة في النماذج المذكورة ببيان وجه تقييد الحدث المخبَر عنه إلى مقام التوصيل. تتجلى علاقة الزمن الذي يقع فيه الحدث بزمن التوصيل في الكلمات التالية:

في الآية من سورة يونس قرينةُ زمن الخطاب هي كلمة "نفصِّل"، وزمن الحدث فيه، وهو تفصيل الآيات، هو نفسه زمن التلقِّي، سواء أكان هذا التلقي وقتَ نزول الآية أم بعدَها، ودلالتهُ الزمنية هي الحال أو الحاضر بالنسبة للخطاب، فإذا افترضنا قارئا يقرأ هذه الآية الآن، فإنه بالضرورة يتلقَّى خطابها في ذات الوقت، فتتحوَّل هذه اللحظة إلى مقامٍ للتوصيل ومعْلَمٍ يُقاس إليه زمن الحدث الثاني الذي عليه مدارُ هذا البحث وموضوع الآية الكريمة وهو نهاية العالم. والدلالة على زمن الحدث أظهرُ في قول ابن كثير على هذه الآية: «ضرب تعالى مثلًا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنَّبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السَّماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل

الأنعام من أبٍّ وقَضْب وغير ذلك»[1] فالمثل كان لبيان قِصَر الحياة الدنيا والذي يمكن أن يُقاس اعتبارًا من زمن التلقي وهو الحاضر كما تقدَّم بيانه. ولما كان الحدثُ المخبر عنه هو نهاية العالم فقد جرى تحديدُ زمنه إلى زمن التلقِّي ضمنيا، وهو زمن قصير بحسب ما يُفهم من غرض التمثيل.

وفي الآية من سورة الكهف تتمثَّل قرينة الخطاب في كلمة "اضْرِب" فهي دالَّة على خطاب مباشر، وتدلُّ زمنيا على الحال لأنَّ الأمر يقتضي الحضور في الأصل، والمعنى: اضرب لهم مثلا الآن في وقت النزول، ويصحُّ أن ينطبقَ الفعلُ على كلِّ زمن لِنتلقي فيُفهم منه أن طلبَ ضَرْبِ المثل قائمٌ في كلِّ لحظة قراءة للنص إلى قيام الساعة، وهو في كلِّ لحظة يمثِّل معْلَمًا لقياس زمن الحياة الدنيا التي ينقل النصُّ هنا قِصَرَها وحقارتها.

وفي الآية من سورة الحديد يظهر الخطابُ في كلمة "اعلموا"، وهو فعل أمرٍ مثل الذي سبق، غير أنه موجَّه هنا ظاهرا إلى جميع الناس، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: اعلموا أيُّها الناس إن متاع الحياة الدنيا المعجَّلة لكم، ما هي إلا لعب ولهْوٌ تتفكَّهون به، وزينة تتزيَّنون بها، وتفاخر بينكم، يفخر بعضكم على بعض بما أولى فيها من رياشها»[2] فقد ذكر في هذا التفسير أمرين: الأول عموم الخطاب، وهذا يجعل من كل لحظة قراءة وتلق مقاما للتوصيل ومعلما لقياس الزمن، والثاني الدلالة الزمنية في التمثيل من خلال كلمة "المعجَّلة" وهذا يعني مدَّةَ الزمن المنقضية إلى نهاية العالم.

---

[1]- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. ص 929.

[2]- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420 هـ/ 2000 م، ج 23 ص 194.

بناء على هذه القرائن ومن خلال إحالة الفعل في كلّ نصٍّ من هذه النصوص الثلاثة إلى زمن التّوصيل ومقامه، يتحوّل هذا المقام إلى معْلَم لقياس زمن نهاية العالم يُرمز له عادة بـ (ز^0)، وإلى مرجع مؤوّل لأن المتلقي يفهم قِصَرَ مدّة الحياة بالرجوع إلى هذا المعلم، وفيما يلي تمثيلُ هذه الفكرة:

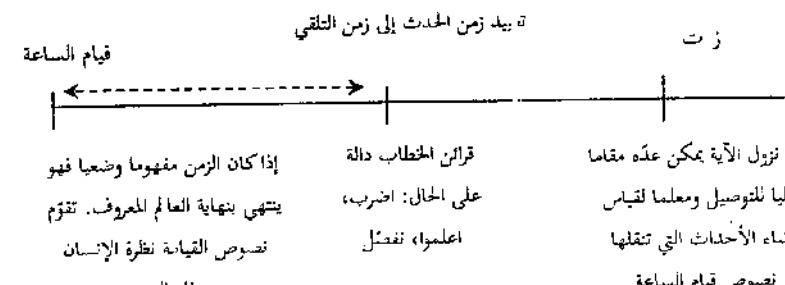

إنَّ تقييدَ زمن الحدث موضوعِ النص وهو قيام الساعة إلى معْلَم معيَّن في مقام التوصيل قاسمٌ مشترك بين أغلب النصوص التي تصف نهاية العالم أو تذكره عرَضًا. ومن النصوص ما يعبِّر عن ذلك صراحةً من خلال مُبهَمات الزمن كالظروف والإشارات، وكلُّها كفيلةٌ بأن تجعل من مقام التوصيل (وقت النزول) أو زمن التلقّي (وقت قراءة النصّ) مرجعا تُفسَّر من خلاله دلالةُ الزمن المعبَّر عنها في موضوع قيام الساعة، كما يفهم ذلك من النصوص الآتية بتوظيفها ظرفا واحدا "قريبًا":

أ. **الإسراء**: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51)﴾.

ب. **الأحزاب:** ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63)﴾.

ج. **المعارج:** ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9)﴾.

د. **النبأ:** ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)﴾.

كما قد يجري التّعبير عن مساحة الزمن التي تفصلُ بين الحياة البشرية ونهاية العالم في النصوص المحمِلة لقيام السّاعة بأشكال لفظية مختلفة، يمكن اتّخاذُ مقام التوصيل فيها معْلَما لتصوُّر تلك المساحة الزمنية، ولا بد أن من أغراض رسالة القرآن تِبيانُ قِصَر تلك المدّة كما في النماذج الآتية التي توظّف قرينة واحدة مشتركة هي الأجل المسمَّى:

أ. **الأنعام:** ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)﴾.

ب. **لقمان:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29)﴾

ج. فاطر: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13)﴾.

د. **الزمر:** ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)﴾.

المستقبَل في نصوص البعث والإحياء: قد يكون الفعلُ الدالُّ على الحدث وما تعلَّق به من ظروفٍ قرينةَ إحالةٍ مقاميةٍ إذْ يبيِّن موقعَ الحدث المخبَر عنه من مقام التوصيل أو التلقي، وقد أفاض بكري عبد الكريم في دراسة هذا الموضوع في أطروحته "الزمن في القرآن الكريم"، وعمَّم توصيفه في هذه الدراسة على صيغ الفعل باختلافها من دون قصْر على موضوع محدَّد كقيام الساعة، فذكر عن صيغة يفعل ما يلي: «نستخلصُ الآراء النحوية في زمن المضارع في: أن يترجَّح فيه التعبير عن الحال، إذا تجرَّد من الأدوات. أن يتعيَّن فيه الحال إذا اقترن بـ "الآن" وما في معناها أن ينصرف إلى الماضي أو الاستقبال إذا سبقته أو لحقته إحدى الأدوات.

وعند دراسة هذه الصيغة "يفعل" في القرآن الكريم نجدُ أن زمنها يتوقَّف أولا وأخيرا على السِّياق الذي ترد فيه حتى وإن كانت مجرَّدة من الأدوات، فإنها تبقى خاضعةً للمعنى الذي تقع فيه، أو الإيحاء الذي يراد منها تبليغه، فتدلُّ على الماضي تارة، وتدلُّ على الحاضر والمستقبل، كما تدلُّ على الزمن العام في مواقف معيَّنة»[1]. على أنَّه أشار إلى موضوع قيام السَّاعة من وجوهٍ لكونه من محاور القرآن الكريم كما في قوله: «من بين تلك القرائن "يوم" التي غالبًا ما تأتي في القرآن للدلالة على قيام السَّاعة لذلك تصرف الفعل المضارع إلى المستقبل البعيد، وهذا في آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ (الأنعام: 158) أي تأتي بعضُ آيات ربك، وهو استقبال بعيد انصرف إليه الفعلُ المضارع (يأتي) بفضل القرينة اللفظية "يوم" قال الزمخشري وهو يشرح الآية "يريد آيات القيامة والهلاك الكلي وبعض آيات أشراط الساعة".

---

[1]- بكري عبد الكريم: الزمن في القرآن الكريم. دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه. دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2001. ص 115.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ (المائدة: 109) فـ "يجمع" لا يمكن إلا أن تكون للاستقبال لأن اليوم المراد الذي تصدَّر الجملة هو "اليوم" يوم القيامة لأن جملة "يوم يجمع..." ظرف لقوله (لا يهدي) أي لا يهديهم طريق الجنة كما يفعل بغيرهم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (النساء: 141) حيث ينصرف الفعل "يحكم" في الآية إلى المستقبل البعيد بفضل القرينة التي تلت الفعل وهي يوم القيامة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (الأنعام: 73) فـ "ينفخ" للاستقبال بقرينة "يوم" والمراد بها السَّاعة وهذا ما يوضِّحه الزمخشري حيث يقول: "يوم ينفخ" ظرف لقوله "وله الملك" كقوله: "لمن الملك اليوم" قال كأنه قيل وحين يكون ويقدر يقوم بالحق.

أما قولُه تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (المائدة: 119) فإن الفعل "ينفع" في الآية يتأرجح زمنُه بين المستقبل والمستقبل البعيد عند المفسِّرين، لأنهم اختلفوا في تحديد اليوم المراد، هل هو في الدنيا، أو هو في الآخرة أو هو زمن مستمرٌّ في الأزل، قال الزمخشري: فإن قلتَ: ما معنى قوله يوم ينفع الصادقين صدقُهم إن أريد صدقهم في الآخرة، فليست الآخرة بدار عمل، وإن أريدَ صدقُهم في الدنيا فليس بمطابقٍ لما ورد، لأنه في معنى الشَّهادة لعيسى عليه السَّلام بالصدق. والرأي عند الزمخشري أن يكون معناه: الصدق المستمرُّ بالصادقين في دنياهم وآخرتهم..) إلى آخر الآراء التي عرضها الزمخشري فيكون الفعل "ينفع" دالا على الزمن العام عند الزمخشري وعلى المستقبل القريب والبعيد عند الآخرين ولكنَّ الرازي يجعل "اليوم" يوم القيامة والمعنى عنده: أن صدقهم في الدنيا ينفعهم يوم القيامة ودليله في ذلك أنَّ صدق الكفار في القيامة لا ينفعُهم»[1].

---

[1]- المرجع نفسه ص 129 / 131.

ولكنّه لم يشر في كل من هذه التحويلات إلى مقام التوصيل أو التلقي، وإنما يفهم ضمنيا من توظيفه عبارتي المستقبل القريب والبعيد، بمعنى أن زمن الحدث المخبَر عنه سيكون في المستقبل القريب أو البعيد لحاضر نزول الآية أو حاضر التلقي أو حاضر الحياة الدنيا عموما. والإحالة على الزمن البعيد في هذه الظروف والأفعال تبقى أمرا نسبيا لأنه سبقت الإشارة إلى اعتبار البعد في الزمن مجرد وهم إنساني أو زمن نفسي محض، أما في الحقيقة فإن الزمن مفهوم نسبي لأن الخطاب القرآني يقدم ما يراه أي قارئ بعيدا يقدمه على أنه قريب، مصداق قوله تعالى في سورة المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)﴾ ولكن لا خلاف على أن هذه القرائن المدروسة هنا تموضع حدث البعث والنشور في مستقبل الزمن الحاضر: زمن النزول، أو زمن التلقي، أو زمن الحياة الدنيا.

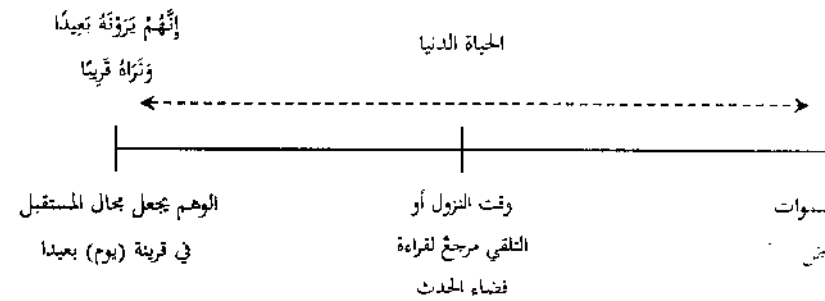

مرجعيَّة الزمن في الخطاب المنقول: يمثِّل تصنيفُ النصوص بين التاريخ والخطاب أهمَّ خطوة لدراسة مرجعية التلفُّظ أو التوصيل، وهي عمادُ النصوص القرآنية لكونها كلام الله لفظا ومعنى بالأصل موجَّها إلى المتلقِّي أو القارئ للقرآن، ولكن قد يتضمَّن كلٌّ من النوعين خطابا منقولا أو حوارا، إما لله تعالى أو لشخص ما قيل في غير مقام التلقِّي أو القراءة، يتمُّ نقله من سياقه المباشر الذي قيل فيه أوَّل الأمر ليتحوَّل إلى خطاب غير مباشر في سياق القرآن الكريم.

يمكن أن يصنَّف الخطابُ المنقول بناء على معايير تداوليَّة مختلفة، منها أن يُقسَّم بحسب المخاطِب المنقول كلامُه وهي في نصوص قيام السَّاعة ثلاثة أشكال مختلفة: الأول كلام الله تعالى إلى مرسَلٍ إليه مختلفٍ عن القارئ تدلّ القرائن اللفظية على كونه محوّلاً كما في سورة البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)﴾.

والثاني كلامُ غير الله وهو أكثر حالات الخطاب المنقول والغالبُ عليها، يتراوح بين مقامين للتلفُّظ في الدنيا والآخرة كما في سورة طه: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104)﴾.

والثالثُ الحوار المنقول بين أكثر من متكلِّم، وهو مختلفُ المقامات أيضا بين الحياة الدنيا والآخرة، كما في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)﴾.

وقد يصنَّف الخطابُ المنقول بحسب معطيات مقام التلفُّظ أو التوصيل، ولا يختلف حكمُ الحوار هنا عن حكم الخطاب الواحد إذا كان كلاهما مقيَّدا إلى مقام تلفُّظ أو توصيل معيَّن يكون هو بدوره مَقِيسًا إلى مقام القراءة، فهو يتَّخذ في الغالب ثلاث مقامات:

الأول: مقام تلقِّي الخطاب حين كان مباشرا في ماضي القراءة الحالية للنصّ كما في سورة الحجر: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38)﴾ معلومٌ هنا أن الحوار دار قبل بدْءِ حياة الإنسان على الأرض، ومن القرائن الدالة على ذلك أن النصَّ يروي بداية الخلق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ

مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31)﴾، فالماضي في "خلقنا" هو ماضٍ بالنسبة إلى حاضر التَّوصيل أو التلقِّي (هذا الحاضر هو وقت نزول الآيات الكريمة أو وقت قراءتها)؛ وانطلاقا من هذا المرجع الجديد للحوار يرسُم النصُّ فضاءَ الحدث الغيبي وهو قيام الساعة بما دلَّت عليه القرائنُ في العبارات التالية: (إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)، (إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) تحدّد هذه العبارات زمنَ قيام الساعة بأنه مستقبلٌ يتجاوز الحياةَ الأرضية للإنسان بحيث يفهمُ القارئ الحالي للآيات الكريمة بأن حدث يوم الدين أو البعث هو بالنسبة له مستقبلٌ في الزمان تماما كما كان في مقام الحوار المنقول. تسمح إذن قرائن السِّياق برسم ازدواجية في مرجعية الزمن: الأولى هي مرجعيَّة التلقي أو حاضر القراءة والثانية هي مرجعيَّة الحوار أو مقامه، ويمكن تمثيلُ هذه الازدواجية كما يلي:

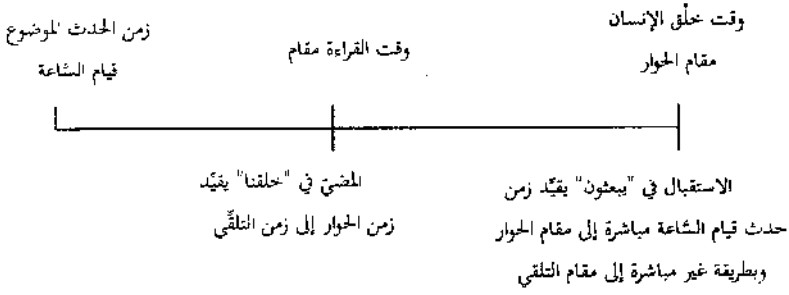

من هذه المعطيات يمكن تمثيلُ ازدواجية المرجعيَّة الزمنيَّة كما يلي (ز0 هو زمن التلقي وهو الحاضر بالنسبة لقارئ القرآن لحظة القراءة، ز0' هو زمن الحوار المنقول وهو الحاضر بالنِّسبة للمتحاورين والماضي بالنسبة للقارئ، ز هو زمن الحدث الموضوع: قيام السَّاعة):

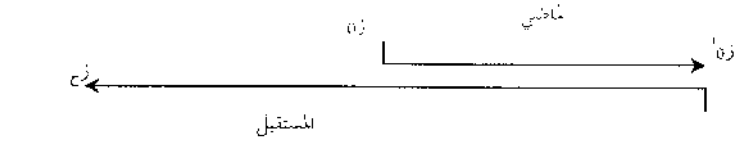

والمقامُ الثاني هو حيث يتطابقُ مرجعُ الخطاب المنقول مع مرجع التَّوصيل أو التلقي، وفي هذه الحالة يمكن للمتلقي أن يتجاوز مسألة ازدواجية المرجعيَّة الزمنية، وأن يؤوِّل الفضاءَ الزمنيَّ للحدث الموضوع انطلاقا من معطيات ظروف تلقِّيه أو قراءته، كما هو الحال في خطاب المشركين المنقول في سورة المؤمنون: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85)﴾. أورد الطبري ما يلي: «يقول تعالى ذكره: ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله، ولا تدبَّروا ما احتجّ عليهم من الحجج والدلالة على قدرته، على فعل كلّ ما يشاء، ولكن قالوا مثل ما قال أسلافُهم من الأمم المكذِّبة رسلها قبلهم: (قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا) يقول: أئذا متنا وعدنا ترابا قد بليت أجسامُنا، وبرأت عظامُنا من لحومنا (أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)»[1] فلم يحدِّد مقاما معيَّنا لهذا الخطاب بنسبته إلى جماعة مخصوصة في زمن ما.

غير أن قرائن الخطاب المباشر في السُّورة الكريمة الموجَّه إلى شخص النبي تَدْعم أنْ يكون المكذِّبون بالبعث هم المشركون الذين كذَّبوا برسالة النبي وقتَ نزول القرآن الكريم عليه. يظهر ذلك مثلا في قرائن السّياق التالي: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ

[1]– الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن. ج 19 ص 62.

مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73)﴾ ويظهر أيضا في النصّ المدروس هنا حين عقّب تعالى على مقالتهم بقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فهو أمرٌ للنبي الكريم بما يُفهم منه أن أصحاب خطاب التكذيب كانوا في زمانه صلى الله عليه وسلّم.

على كلّ فإن هناك احتمالين لمقام الخطاب المنقول في هذا النصّ لا يختلفان كثيرا: الأول هو أنْ يكون لمشركين من زمن النبيّ، والثاني أن يكونوا صوتاً لكل مكذّب بالبعث، وكلا الحالين لا يختلفان كثيرا عن مقام تلقّي النص ككلّ، وهو الحاضر بالنسبة لوقت نُزول الآيات الكريمة أو وقت قراءتها. وعلى هذا يمكن أن يحدّد القارئُ فضاءَ الحدث انطلاقا من مرجعيّة الزمن في الخطاب المنقول ذاته وهذا ظاهرٌ في عبارة (أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)، فهي دالّةٌ على الاستقبال البعيد عند المخاطِب وعند متلقّي النص على حدّ سواء، ويمكن تمثيلُ هذه الفكرة كما يلي:

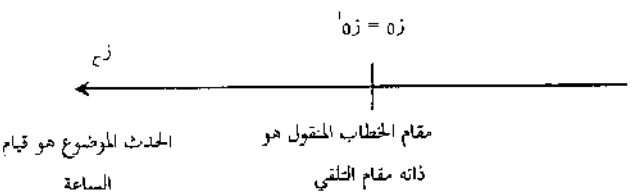

والمقامُ الثالث من مقامات الخطاب أو الحوار المنقولَيْنِ المحدِّدة لمرجعيَّة الزمن أن يكون الخطاب متزامِنًا مع الحدث الموضوع وهو قيام السَّاعة، ويقتضي هذا أنْ يمثِّل كلاهما المستقبلَ بالنسبة للمتلقي وقتَ القراءة، كما في سورة طه: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104)﴾، وفي سورة غافر: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)﴾، وفي سورة الروم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56)﴾، وفي سورة المؤمنون: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)﴾.

في هذه النصوص كلِّها خطاباتٌ منقولة من المستقبل المُزامِن لحدث قيام السَّاعة، سواء أكانت خطابات متجانسةً أم حوارًا دار بين أكثر من متكلِّم. ففي الآيات من سورة طه يتحوَّل ظرفُ قيام الساعة إلى مَعْلم ومرجعِ قياسٍ لفضاء الحدث، والحدثُ المخبَر به هنا هو الحياة الدنيا، فتحوَّل ظرف قيام الساعة إلى معلم تُقاس عليه أحداثُها وملخَّص ذلك في عبارة "إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا"، فهي تحدِّد الزمنَ المنقضي في ماضي الحوار المنقول إلى حاضره، وهذا الحاضرُ عند المخاطِب هو المستقبل بالنسبة للمتلقي كما تدلُّ عليه قرائن الحكي في "نَحْشُرُ" و"يَتَخَافَتُونَ" و"يَقُولُ". هكذا يمكن أن يتَّخذَ القارئُ من قرائن المرجعيَّة الزمنيَّة في الخطاب المنقول معْلمًا لرسم فضاء حدث قيام السَّاعة كما يلي:

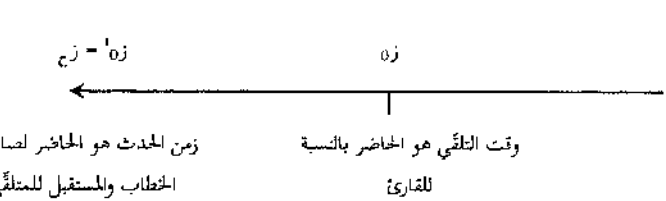

في هذا التَّمثيل يمثِّل الرمز (زo) المرجعَ الزمنيَّ لعملية التوصيل ومقام قراءة النصِّ في جملته، وهو الحاضر بالنسبة للذي يقوم بهذه القراءة، ويمثِّل الرَّمز (زo') المرجع الزمنيَّ للخطاب قبل أن ينقله النصُّ فهو في الأصل خطابٌ مباشر في مقام

محدَّد هو وقت قيام الساعة تحوَّل بالنقل إلى خطاب غير مباشر، ويمثِّل الرَّمزُ (ز) زمنَ الحدث مقيسا إلى مقام الخطاب قبل نقله، فهو حاضرٌ بالنسبة لصاحب الخطاب ولهذا تمَّ التعبير عنه رياضيًّا بالمساواة. وباعتبار القرائن التي يوظِّفها النصُّ، يمكن صياغة هذا التمثيل على هذه الشاكلة:

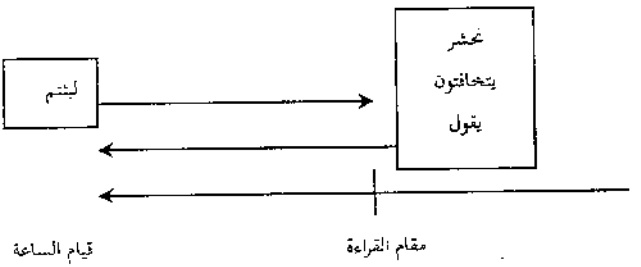

في هذا المخطَّط تظهر ازدواجيةُ الحدث والمرجع: فبالنسبة لقارئ النص ومتلقِّيه، كما هو حالنا الآن، يمثِّل وقتُ القراءة حاضرًا ومرجعًا للتلقي، والحدث المقصود هو قيام السَّاعة وزمنُه المستقبلُ كما تدلُّ القرائن الفعلية "نحشر، يتحافتون، يقول" فهي تحدِّد زمنَ الحدث بالنسبة إلى حاضر التلقِّي في الزمن المستقبل. وأما من جهة صاحبِ الخطاب المنقول فإن مقامه هو وقتُ القيامة ذاته، ولذلك يوظِّف صيغةَ الماضيِّ في "لبتتم" ليُحيلَ إلى الحياة الدنيا على أنها حدثٌ ماضٍ، ومقامُ القراءة جزء من هذه الحياة الدُّنيا التي يحيل عليها.

يُستفادُ من هذه الحالات الثلاثة لازدواجية المرجعيَّة الزمنيَّة أنَّ الخطاب المنقول، سواء أكان متجانسًا أم حواريًّا، يتضمَّن معلمًا خاصا به، يتمُّ تقييدُه إلى حاضر التلقي عموما من خلال القرائن النصية وهي في أغلبها الدلالة الزمنية في الصيغ الفعليَّة. فإما أن يكون زمنُ الخطاب ماضيًا بالنسبة لزمن التلقِّي وكلاهما ينظرُ لحدث قيام السَّاعة نظرةَ استقبال، وإما أن يكون زمنُ الخطاب المنقول هو ذاته زمن التلقي، وفي هذه الحال يؤوِّل القارئُ فضاءَ الحدث من خلال قرائن الخطاب ذاته، وإمَّا أن يكون الخطابُ المنقول متزامنًا مع حدث قيام الساعة، وفي هذه الحال يتمُّ

اعتبار قرائن الخطاب في سياقِ مقامِها الخاص فيحتاج القارئُ في كلِّ حالة من حالات النَّقل إلى تحديد مقام الخطاب المنقول حتى يمكنَه تحديدُ مرجع الزمن بالنسبة له هو كمتلقٍّ ثانٍ للخطاب، بمعنى أن يتحوَّل مضمونُ الخطاب من المخاطَب السَّابق إليه هو. في الخطاب المنقول تزدوج مرجعيَّة التلّفظ؛ حيث يتحوَّل الحديث المنقول أو الحوار المسجَّل إلى حدث بالقياس إلى مقام التوصيل الأصليِّ (الذي هو كما تقدَّم موقفُ النزول أو مقام التلقي)، ولكنَّ هذا الحوار أو الخطاب ذاته يتضمَّن معلمًا خاصا به لرسم الأحداث المخبَر عنها بين المتحاورين، ولهذا تحدُث ازدواجية مرجعيَّة التوصيل في الحوار المنقول أو الحوار القرآني عمومًا.

خاتمـــــــة:

اقترحت هذه الدراسة مراجعة بعض المفاهيم النظرية والإجرائية في المقاربة التداولية، وفي مقدمتها مرجعية التواصل، وهذا من خلال استقراء أحوال الخطاب اللغوي في القرآن الكريم وما يتعلق به من ظروف التلقي، حيث يمكن أن نجمل أهم نتائج البحث فيما يلي:

تتمثل جدوى دراسة القرآن الكريم دراسة تداولية، من الناحية المعرفية البحتة، في مراجعة المفاهيم الأساسية للنظرية اللغوية الحديثة وتمحيصها، وهذا من خلال ما يظهر من حقائق النصوص والقوانين التي تحكمها في عملية التوصيل أو التأويل.

تفتقر الدراسات التداولية لنواة معرفية تجمع شتاتها، حيث تتوزع بين مقاربة مفهوم السياق في التواصل، وبين مقاربة آليات الحجاج أو أفعال الكلام أو المحادثة. وهذا الشتات يعود من جهة إلى اختلاف المهاد الفلسفي للنظرية، كما يعود إلى سعي المهتمين بالتداولية إلى استغراق أكبر قدر من الظواهر اللغوية بالوصف والتفسير.

من المفاهيم المحورية التي يقترحها التحليل التداولي للغة فكرة المرجعية، ومفهومها يستند لمفهوم المرجع في اللسانيات، من حيث هو عنصر مؤول للعلامة اللغوية حيث تكتسب دلالتها التواصلية من خلال عودة مستعمل اللغة إلى عالم المراجع المتوفرة نصا أو مقاما أو ثقافة من أجل فهم الخطاب وتقبله.

أول مراحل الدرس التداولي دراسة العلاقة بين اللغة ومستعملها، والمقصود بها في الحالة العامة استناد ظاهرة النص إلى المتكلم والمخاطب بما يحيل إليهما من مبهمات نصية، وفي القرآن الكريم تتردد تلك الإحالات لتحدد في مواضع منها ذات المخاطِب أو المخاطَب، أو المرسِل أو المرسَل إليه، وهي عناصر فاعلة من وجهة النظر التداولية في تشكيل اللغة وفي فهمها على حد سواء.

أهم معالم مرجعية الخطاب في القرآن الكريم مرجعية الزمن، ويكتسي هذا المعلم دوره في التوصيل من خلال اعتماد القارئ على الإحالات الزمنية في النصوص لتأويلها، أو تقبلها، والملحوظ أن نصوص قيام الساعة تتوفر على كثير من حالات الإحالة الزمنية لما فيها من إبلاغ للقارئ، كما أن هذه المرجعية تتخذ غير شكل بين خطاب مباشر وخطاب منقول، وتحليل تلك الحالات يكشف عن مسارات التأويل التي يسلكها قارئ النص في عملية التلقي والقبول.